الإسكندرية ودورها الحضاري في احتفالية بالمجلس الأعلى للثقافة في القاهرة:

فسيفساء الإسكندرية وكيف أثرت على تكوينها وحوار بين الإسكندرية المسيحية والإسكندرية المسلمة

القاهرة ـ «القدس العربي»

من ـ محمود قرني:

على مدار يومين عقد المجلس الاعلى للثقافة ندوة موسعة تحت عنوان «الإسكندرية دور حضاري وتراث» حيث شهدت أروقة قاعة الندوات حوالي ست ندوات مطولة تحت عناوين مختلفة مثل «تاريخ الإسكندرية في العصرين البطلمي والروماني» التي تحدث فيها كل من آمال الشرقاوي ومصطفى العبادي الذي تناول قضية التفاعل الحضاري في مصر اليونانية الرومانية والدكتورة فادية أبو بكر التي اتخذت الإسكندرية كعاصمة لمصر في العصر البطلمي مقارنة بمدينة منف رمز الوطنية المصري، كذلك تحدث الدكتور محمد عبد الغني عن رجال الاعمال في الإسكندرية، اما الجلسة الثانية التي أدارها الدكتور مصطفى العبادي فقد تحدث فيها الدكتور فؤاد شرقاوي عن الدراما اليونانية في الإسكندرية من خلال قصيدة «خصلة شعر برنيكي» والدكتور مجدي كيلاني الذي اجاب على سؤال «لماذا يتعين علينا احترام اخلاق أبيقور؟»، اما الجلسة الثالثة من اليوم الاول التي دارت حول اثار الإسكندرية التي ترأسها الدكتور محمد عبد الغني فقد تحدث فيها الدكتور عزت قادوس حول «موانئ بحيرة مريوط وعلاقتها بموانئ الإسكندرية». وتحدثت الدكتورة منى حجاج عن قاعات الدرس في كوم الدكة، وعبير قاسم حول فسيفساء مدينة الإسكندرية وعلاقتها بالادب السكندري.

أما اليوم الثاني فبدأ بندوة عن اثار الإسكندرية أدارها الدكتور فاروق أباظة وتحدثت فيها الدكتورة ميرفت سيف الدين وتناولت صور الاشعة تحت الحمراء في كوم الشقافة ومنى شاهين عن عملة مدينة الإسكندرية وسيناريو متحف العملة الجديد، والدكتورة وفاء الغنام عن مجموعة رؤوس التراكوتا لسيدات من المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، اما الندوة الثانية من اليوم الثاني فجاءت تحت عنوان «الإسكندرية في العصرين الاسلامي والحديث» وترأسها الدكتور عزت قادوس وتحدث فيها الدكتور محمد عبد الفتاح حول الإسكندرية ومصادر دخول وانتشار المسيحية في مصر، والدكتورة سحر سالم التي تحدثت عن الإسكندرية مدينة المجد والفكر والتجارة في العصر الاسلامي، والدكتور فاروق أباظة الذي تحدث عن «الإسكندرية في العصر العثماني متعددة الجنسيات ومتنوعة الثقافات « 1517 ـ 1798»، اما الدكتور فوزي السيد المصري فقد تحدث عن حفر ترعة المحمودية وأثره على التطور الاجتماعي والعمراني والاقتصادي لمدينة الإسكندرية في القرن التاسع عشر.

وسوف نحاول هنا ان نتوقف بشيء من التفصيل حول بعض أهم هذه البحوث التي تناولتها ندوات المؤتمر.

خصلة شعر وقصيدة

كان من بين الأوراق اللافتة، تلك الورقة التي قدمتها الدكتورة ماجدة النويعمي تحت عنوان «خصلة شعر برنيكي» وصورة الإسكندرية داخلها. وأشارت الباحثة الى انه بعد ان تزوج بطليموس الثالث من ابنة عمه برنيكي، سرعان ما خرج هذا الملك في حملة عسكرية ضد سوريا وهي ما يعرف بالحرب السورية الثالثة، وما كان من الملكة برنيكي الا ان تنذرت خصلة من شعرها لتوضع في احد معابد الإسكندرية اذا عاد زوجها سالما منتصرا من الحرب.

وما ان عاد الملك منتصرا حتى أوفت برنيكي بنذرها غير ان خصلة الشعر اختفت من المعبد في ظروف غامضة ولما فشل كونون، فلكي البلاط، في تفسير سر اختفائها، اصطنع قصة خيالية تقربا للملكة، مؤداها ان الخصلة صعدت الى السماء واستقرت بين الكواكب والنجوم، وتضيف الدكتورة النويعمي قائلة:

ولما راقت هذه القصة للملكة، اغتنم كاليماخوس، شاعر الإسكندرية الاشهر، هذه الفرصة، مصانعة منه للملكة، وسجل الحادثة في اليجية من الاليجات في مناسبة اطلق عليها اسم «خصلة شعر برنيكي» وذلك املا في التقرب من الملكة، ونيل رضاها، غير ان هذه الاليجية فقد وصلتنا منها عدة أبيات قليلة في صورة شذرات من بردية وتقول النويعمي مردفة:

من حسن الطالع ان وصلتنا شبه ترجمة للاليجية الاصلية في القصيدة رقم 66 للشاعر الروماني كاتولوس واعتمادا على هذه القصيدة اللاتينية امكن ترتيب شذرات البردية اليونانية بالصورة المنشورة.

احترام أبيقور

اما الدكتور مجدي كيلاني فقدم ورقة تحت عنوان «لماذا يتعين علينا احترام أخلاق أبيقور؟» تناول فيها الاسباب الحقيقية التي تفرض علينا احترام المذهب الاخلاقي كما ورد عند أبيقور وأتباعه خاصة في مواجهة النقد اللاذع الذي طالما وجه نحو هذا المذهب والاتهامات القاسية التي طالما التصقت به، ومن اجل ذلك يتعرض الباحث لضرورة الفهم الحقيقي للابيقورية خاصة فيما يتعلق باللذة كمعيار أوحد للخير وما يتصل بذلك من تقسيم ابيقور للرغبات والتمييز بين لذات الجسم ولذات النفس ومن ثم التمييز بين آلام الجسم وآلام النفس ودور الحكيم في هذا الموقف، كذلك يحاول الباحث تأصيل الاسباب التاريخية والسياسية التي كانت وراء صفات الحكيم عند أبيقور فيناقش لماذا لا يعمل الحكيم بالسياسة ولماذا لا يتزوج أو ينجب ابناء ولماذا لا يكون خطيبا مفوها ولماذا يحسن معاملة الخدم والعبيد فضلا عن عرض موجز لمفهوم الصداقة وبعض المبادئ الاخلاقية الاخرى.

كما يرى الباحث ـ في ورقته ـ ضرورة الاشارة الى موقف أبيقور من الآلهة ليس لتبرئة أبيقور تماما من انكار العناية الالهية ولكن من اجل ربط هذا الموقف مع مواقف سابقة متشابهة في الفلسفة اليونانية القديمة وخاصة عند سقراط.

ومن الدلائل التي يستند عليها المقال في وجوب احترام الاخلاق الابيقورية امكانية اعتبار سقراط أبا روحيا للأبيقورية فضلا عن كونه كذلك بالنسبة للمدارس الفلسفية الهلنستية الاخرى وكذلك قصيدة «طبيعة الاشياء» التي كتبها لوكريتيوس شعرا في محاولة لاضفاء قدر من القداسة أو الاحترام على المذهب الابيقوري.

مسقط رأس درويش وقاعات الدرس القديمة

في بحثها المطول تحدثت الدكتورة منى حجاج عن قاعات الدرس في كوم الدكة بالإسكندرية واشارت في البداية الى انه في عام 1980 اكتشفت البعثة الاثرية الهولندية التي تعمل في منطقة كوم الدكة الاثرية بالإسكندرية منذ أوائل الستينيات من القرن العشرين، مجموعة من ثلاث حجرات متجاورة تطل على الرواق الشمالي للحمام الامبراطوري الكبير بالمنطقة، وتتميز هذه الحجرات بتخطيط لم نعرف أمثلة اخرى له في مصر وتحتوي هذه الحجرات المستطيلة على مصاطب او درجات حجرية تدور حول الحجرة من ثلاث جوانب وتتخذ شكلا منحنيا عند الجانب القصير منها مع وجود مقعد متميز بحجمه وارتفاعه عند وسط الحنية.

وأمام هذه المقاعد وجدت بقايا قواعد قليلة الارتفاع لوضع شيء أو وقوف شخص فوقها.

وتضيف منى حجاج انه في أواخر التسعينيات من نفس القرن كشفت مجموعة اخرى من حجرات مماثلة تطل على الرواق المعروف حديثا بشارع المسرح والذي يمتد ليصل بين المربع الروماني الكبير المعروف بالاوديون وبين منطقة الصهاريج والحمام الكبير، بلغ عدد الحجرات المكتشفة من هذا النوع حوالي عشرين حجرة متراصة ومتشابهة مع وجود بعض الاختلافات البسيطة بينها في المساحة والعناصر المعمارية الموجودة داخلها، وتقول منى ان هذه الحجرات أرض بناء على مكتشفات الفخار بأواخر القرن الخامس الميلادي وامتد استخدامها حتى العصر الاسلامي حين هجرت المنطقة وتحولت الى جبانة اسلامية في القرن الثامن الميلادي.

وتردف منى ان العلماء يحاولون حاليا فهم طبيعة هذه الحجرات ووظيفتها حيث تميل معظم الآراء الى اعتبارها حجرات تعليمية متصلة بشكل أو بآخر بالمدرج– الأوديون. وتقدم هذه الورقة فكرة عن خصائص هذه الحجرات المعمارية، ومقارنتها بما هو معروف عن اماكن التعليم المختلفة والمعروفة في العالم القديم، ومدى ارتباط هذه الحجرات بالحالة العلمية والثقافية التي كانت عليها مدينة الإسكندرية في أواخر تاريخها القديم.

المسيحية في مصر

اما الدكتور محمد عبد الفتاح السيد فقدم ورقة تقع بين اهم الاوراق المقدمة تحت عنوان «مصادر دخول وانتشار المسيحية في مصر»، بدأ السيد بحثه مؤكدا ان الاسس العلمية المحددة لتعريف سبل انتقال المسيحية من فلسطين الى مصر في بداية القرن الاول الميلادي لا تزال غامضة المجهول، وهي دائما خاضعة للخلافات المتعددة في المناهج التفسيرية والتي تعتمد على قلة المعلومات المصدرية وهو الامر الذي قد يؤدي في اغلب الاحيان الى تفسيرها في اطر اسطورية تسللت لتسكن محل الفراغات التاريخية العديدة في تلك المسألة بما يلائمها من الناحية المذهبية والعنصرية، وبالطبع كانت تلك هي المشكلة الرئيسية في التعامل مع هذا الموضوع في كثير من جوانبه التاريخية والحضاري.

ويضيف الدكتور محمد عبد الفتاح قائلا: اننا بالفعل نواجه مشكلة صعبة في البحث عن مصادر أولية تبرر لنا وسيلة انتقال المسيحية الى مصر، والطرق الاولية التي سلكها المصريون للدخول فيها، فاستمرار المسيحية حتى الآن، واستمرار الصراعات المذهبية الخفية بين الشرق والغرب كانت من أولى الاسباب وراء غموض تلك المسألة، فاذا ابتعدنا عن المفاهيم اللاهوتية المعقدة ومناهجها المختلفة في التعامل مع الاحداث التاريخية قد تبدو الرؤية مختلفة تماما وتطرأ على السطح علامات مضيئة في تاريخ المصريين والمسيحية تكشف الستار عن بعض المسائل الغامضة المرتبطة بدخول المسيحية وانتشارها بين المصريين تحت الحكم الروماني.

ويضيف عبد الفتاح ان الإسكندرية تعد دائما بؤرة الصراع والتفاعل الثقافي والديني للعقيدة الجديدة بل انها كانت معيارا لقياس حركة نمو وتدهور الفكر الديني المسيحي، وذلك بما تملكه من موروث ثقافي قادر على استيعاب الفكر الديني الجديد بما يحمله من غموض وأسرار قد تبدو غريبة على فكر المواطن المصري في تلك الفترة.

ويتناول الباحث زيارة المسيح الطفل المقدس لمصر، والتبشير بواسطة اليهود ثم تبشير القديس مرقص، والغنوصية المصرية وتعاليم ما بعد القيامة ويوسابيوس ومشكلة تاريخ المسيحية المبكرة في مصر.

الإسكندرية الإسلامية

في المقابل قدمت الدكتورة سحر سالم ورقة تحت عنوان «الإسكندرية مدينة المجد والفكر والتجارة في العصر الاسلامي» اشارت فيها من البداية الى ان الموقع الفريد للاسكندرية كان حافزا لحكامها البطالة لبناء دار لصناعة السفن هي نفسها دار الصناعة التي اتخذها المسلمون الفاتحون لمصر في عصر الخلافة الراشدية، لبناء سفنهم الاسلامية بعد قيامهم بتجديد هذه الدار، وتضيف سحر انه كان لهذه المكانة الرفيعة التي تبوأتها الإسكندرية فضلا عن حصانتها ومنعتها اكثر الاثر في اعتبار المسلمين اياها منذ افتتاحها بمثابة احد اهم الثغور الاسلامية التي يفد اليها المرابطة بقصد الرباط، واحتفظت الإسكندرية طوال العصر الاسلامي بمكانتها الاستراتيجية البحرية والعسكرية فكثرت بها الاربطة مثل رباط الواسطي وسوار والهكاري وابن سلام والامير طغيا وقجماس. كما ساهمت بأسطولها في الانتصارات الاسلامية المتتالية بدءا من ذات الصواري عام 34 للهجرة وانتهاء برد الحملات الصليبية المتأخرة في العصر المملوكي.

فسيفساء تمثل الاسكندر المقدوني

القص المغربي الجديد وسؤال الإبداع..

وفاء مليح*

■ القصة القصيرة. المرأة الطفلة الصغيرة الحجم التي تشبهني حد التماهي. الخجولة. الجريئة. القلقة. المراوغة. المشاكسة. المزاجية. المشاغبة. المستفزة والمستفزة. لهذا أجدني مشدودة إليها قراءة وكتابة.

تلك الطفلة التي تختزل. تكثف. توجز. تضمر ولا تظهر. أنظر إليها فأجدها في حالاتها. هاته المرأة الطفلة. الآسرة. الفاتنة. تمارس علي غوايتها فأنجذب إليها مفتونة بسحرها. ألتهم ما بين سطورها. وهي إذ تجدني مشدودة إلى فتنتها تصر على ممارسة غوايتها. تصر على لعبة التمنع. تنثر أمام عيني ذرات غبار السؤال والقلق فاتحة بابي للتأمل أمام غموضها الملتبس.

كيف أنظر إلى القصة المغربية الآن؟ لكي أكون صريحة مع نفسي ومع الآخر لا أعرف جوابا أكيدا على سؤالي هذا..لكن ما أعرفه وما أنا متأكدة منه هو أن القصة المغربية فتحت أبوابا للنقاش. حركت أقلاما عديدة حراكا ونشاطا لم يعرفهما المشهد الأدبي من قبل. السؤال الذي يطرح هو لماذا عرفت القصة القصيرة هذا النشاط في السنوات الأخيرة رغم أنها جنس حديث النشأة مقارنة بالشعر والرواية، ونظمت لها ندوات وملتقيات خاصة وتأسست لها جمعيات تشتغل على قضاياها وتتبنى نشر إنتاجات أعضائها؟..... القصة القصيرة كما نعلم جنس أدبي قادر على التكيف مع الإيقاع السريع لنمط الحياة المعاصرة. سهلة النشر بحكم حجمها الصغير في الجرائد والمجلات والإنترنت. تعددت طرائق كتابتها والتيمات التي تطرقت إليها...رغم هذا التعدد يصعب تحديد ملامح واضحة لتيار أدبي يؤطر جنس القصة وما يمكن أن نلمسه في المشهد الأدبي هو تجاذب التيارات التي تبقى مفتوحة وبدون اكتمال لأنها مرصودة لتحولات أخرى تشكل ملامحها الجديدة الشيء الذي تأتي به دراسات نقدية للمجاميع القصصية التي تتناسل في الإنتاج أو ندوات تخصص لهذه الدراسة. ينبغي أن أسجل هنا غياب نقد جاد ومسؤول في مواكبة إنتاجات الأدباء الشباب إلا في حالات قليلة.

ظهرت جمعيات ثقافية تشتغل على القصة القصيرة وظهرت معها نواد للتجريب القصصي، مما جعل القصة المغربية تمتلك هويتها سواء أكانت مكتملة الملامح أم لا المهم أنها نفضت عنها تبعيتها إلى وقت قريب للأدب المشرقي. تبع ذلك خلق صدى للمنتوج القصصي داخل المغرب وبفرص قليلة خارجه لمحدودية توزيع الإنتاج الوطني وضعف التبادل الثقافي بين المغرب والبلدان العربية والأجنبية ثم غياب ترجمة القصة بالمقارنة مع غيرها من الأجناس الأخرى كالشعر والرواية. تقصير تتحمل مسؤوليته المؤسسات الثقافية داخل بلادنا غير القادرة على وضع خطط استراتيجية متوسطة أو بعيدة المدى من أجل تسويق المنتوج المغربي خارج الحدود. ورغم أن الشبكة العنكبوتية تقدم خدمات كثيرة من أجل سرعة النشر إلا أنني أجد أن لها نواقص لا تخدم الإبداع والمجال الآن لا يتسع لذكر التفاصيل.

المتتبع للمشهد القصصي والأدبي يلاحظ أن الجمعيات التي تأسست لتشتغل على القصة وتحولاتها تتبادل فيما بينها الانتقادات وأن الكتاب الجدد تسلحوا بثقافة الهدم ورفض الآخر. كل قاص ينتمي إلى جماعة يصدر أحكاما بالسلب على ما ينتجه أعضاء جماعة أخرى. وغالبا ما تكون الأحكام متسرعة تصدر في لحظات انفعال وانفلات غير مبنية على نقد متزن ومتأن. الأحكام تحكمها فقط أهواء مزاجية الشيء الذي لا يخدم المشهد القصصي ويدفع إلى التعصب غير المجدي في الآراء. خلافات أعضاء نفس الجمعية تؤدي غالبا إلى إخماد حماس العمل الجمعوي. هذا ما يفسر انطفاء جماعة وخلق أخرى.

تعددت تقنيات وأساليب كتابة القصة فظهر التجريب وتمادى أحيانا إلى حد الغلو. تخلت القصة عن كثير من مقوماتها وأبرزها عمودها الفقري وهو الحكاية. كثيرا ما أجدني لا أنسجم مع تجاربها. فكانت بعضها تشوش أكثر مما تبني. كثرت البيانات في التجريب. إلا أني أنظر إلى هذا الغنى والاختلاف من زاوية إيجابية تضفي حرارة النقاش والحوار وتحرك المشهد القصصي المغربي وتدفع بجنس القصة إلى أن يكون من أكثر الأجناس إنصاتا لنبض واقع المجتمع المغربي وتفاعلا معه ومع إرهاصات التغيير والتحولات العميقة في صيرورة المجتمع والعالم سواء من حيث نمط التفكير أو انهيار قيم وظهور قيم أخرى جديدة.. الفترة الراهنة أشد ما تكون حاجة إلى سؤال الثقافة والإبداع. لذا أعتبر جنس القصة القصيرة أكثر التقاطا لنبض المعيش اليومي وأكثر احتواء للقضايا الساخنة. نحن لسنا معنيين بإصدار بيانات بل نحن معنيون أكثر بالإنتاج على اختلاف مشاربه وتياراته. إنتاج فيه من غور الرؤية وتطويع اللغة ما يمثل الواقع على مستوياته النفسية والاجتماعية. يترجم فاعلية الكاتب وانخراطه في قضايا الإنسان رغم بعده عن دوائر القرار السياسي والاجتماعي. يوثق تواصله مع محيطه ويزكي وضعه الاعتباري.

أظن أن القصة المغربية الجديدة تسير نحو بلورة رؤى متميزة ومتفردة تثري الأدب المغربي والعربي الحديث.

الورشات الإبداعية والندوات التي نظمت لمناقشة قضايا القصة حفزت بدون شك بعض الجهات لتبني نشر بعض الإنتاجات التي تهتم بالقصة من دراسات نقدية. قراءات عاشقة وبيبليوغرافيا.

أما القصة المغربية التي يكتبها القلم النسائي فما شهدته الفترة الأخيرة من إصدارات لمجاميع قصصية لأقلام نسائية كسر الهيمنة الذكورية وحقق تراكما كميا ونوعيا. من حيث عدد المجاميع ومن حيث التيمات التي تناولتها هذه القصص التي تنحو منحى «تذويت» الكتابة كما يسمي ذلك الناقد محمد برادة حيث يقدم الخطاب القصصي الأشياء والعوالم من منظور ذاتي تتداخل فيه لغة الذات مع لغة المؤسسات ويظهر التذويت على مستويات: توظيف ضمير المتكلم وتبني لغة الجسد والاحتفاء به.

توظيف ضمير المتكلم رغم ما يخلقه في ذهن القارئ المتلقي من وهم قراءة السيرة الذاتية إلا أن القاصة استطاعت أن تخترق جدار طابوهات المجتمع بضمير الأنا لتشكل وعيا جديدا لدى المتلقي عن كتابة المرأة وتصحح مفاهيمه القاصرة الخاطئة عن ما يكتبه القلم النسائي وعن الإبداع عموما.

تحدثت القاصة المغربية في المتن القصصي عن الحب واحتفت بالجسد الأنثوي إيقاعا وتصويرا. نهجت الكتابة بالجسد أو ما نعته النقاد بالاستربتيز الأدبي لتغلف جسدها برداء يمحو كل أثر للفعل الشهوي، لتستعيد تحررها عبر منح جسد النص سلطته ولذته الشبقية، لتعلن بذلك عن حضور المرأة كساردة وكشخصية لها دورها فيما تبدع.

نحتاج نحن أبناء هذا الوطن، أبناء هذه الرقعة الجغرافية، رقعة الحضارة، رقعة التاريخ، رقعة الأزمات والمشاكل الاجتماعية، رقعة التناقضات، إلى قصص لا توغل في القوالب الحداثية الغربية التي كثيرا ما تفرغ الكتابة من المعنى. قصص تستمد ملامحها من المحلية وتفتح آفاقها على الكونية لكي تطرب خارج أسوار مدينتها. قصص تشكل خارطة سردية لمغرب قصصي وإبداعي يمحو اليأس واللايقين. يعيد الإيمان والثقة بالجدوى الأدبية. يفتح قنوات كونية في وجه القصة المغربية. فهل سيأتي زمن نكون فيه أكثر وعيا وقبولا لاختلافنا؟ ويكون هذا الاختلاف هو المحرك الرئيسي لدينامية الإبداع؟؟....

* كاتبة من المغرب

تداعيات

إدوارد سعيد في الميزان

د. سامي الصقار*

■ لسوء الحظ فاتني الاطلاع على عزيزتنا «القدس العربي» الصادرة يوم 2006/4/3، وعلى المقال القيم المنشور فيها بقلم الناقد القدير الاستاذ ابراهيم درويش، ولذلك جاء تعليقي عليه متأخرا بعض الوقت. ولكن ذكر الحقيقة لا يضيره التأخير، لأن طلب الحقيقة هو هدف سرمدي في الزمان والمكان.

اما المقال المشار اليه فهو بعنوان «محاولة لتجريد ادوارد سعيد من ارثه الثقافي ـ في تشف ونزعة انتقامية) الذي تناول فيه الاستاذ درويش ردة الفعل السيئة والظالمة التي احدثها صدور كتاب (الاستشراق) لفقيدنا العزيز الدكتور ادوارد سعيد، وفيه فضح جهل الكثير من المستشرقين بالنسبة لاحوال الشرق العربي والاسلامي بالذات، وبتحاملهم على تاريخ العرب والمسلمين وعقائدهم، وانكارهم فضل العرب على اوروبا في نهضتها بعد ظلام القرون الوسطى، علاوة على انخراط عدد من المستشرقين في خدمة الاهداف الاستعمارية لحكومات بلادهم.

والذي دفع الاستاذ درويش لتحرير مقاله هذا، هو نشر كتاب بعنوان «شهوة للمعرفة: المستشرقون واعداؤهم» تأليف روبرت اروين الذي تركز على نقد كتاب (الاستشراق) آنف الذكر. فعمد الاستاذ درويش الى تحليل مزاعم إروين وفندها بدقة، ووصفها بالخروج عن الموضوعية. ثم فضح دوافعه للتهجم على ذلك الكتاب القيم، واهمها كون الكتاب معادياً للصهيونية، ويفضح دور المستشرقين في ضياع فلسطين، ثم ان إدوارد سعيد (وهو النصراني) قد تصدى للدفاع عن الاسلام. وانا كاتب هذه السطور اذكر معلومة اخرى، هي ان سعيد قد خصص كتابا بكامله للتعريف بالاسلام سماه (تغطية الاسلام) المنشور سنة 1997 في نيويورك في سلسلة تسمى Vintage Books، الأمر الذي يثير الحاقدين على الاسلام.

ومن مزاعم اروين هذا، انه ختم كتابه المذكور بما سماه (الكذبة الكبيرة) التي عاش فيها ادوارد سعيد (حسب زعمه)، وهي اقناعه لقرائه بكونه الفلسطيني المهاجر. وفي ذلك اشارة الى حملة شنها على سعيد كاتب يهودي (هو الصهيوني برنارد لويس ـ احد مستشرقي هذا الزمان) الذي قال في مقالة له نشرت سنة 1999، بأن ادوارد سعيد ليس مقدسيا وانه عاش حياته كلها في القاهرة!! وانا بصراحة لا افهم المقصود بهذه التهمة، فهل عيش المرء في بلد غير البلد الذي ولد فيه، وولد فيه آباؤه واجداده، اقول: هل ذلك يجرده من حق الانتماء الى وطنه الاصلي؟!! ولو صحت هذه المقولة فان جميع اليهود الذين اغتصبوا فلسطين، لا يملكون ذرة واحدة من حق الادعاء بأن فلسطين هي وطنهم!! وهو حق يدعيه كل من هب ودب من جانب اناس لا صلة لهم بفلسطين، لا هم ولا أجدادهم منذ آلاف السنين.

لا شك ان برنارد لويس وهو الصهيوني الملتزم، قد نفث سمومه في بلده بريطانيا لعشرات السنين، عن طريق التدريس في جامعاتها ونشر المقالات، ولكنه في النهاية رآها لا تحقق له جميع اهدافه الصهيونية، فتحول الى ميدان اوسع هو ميدان الأم الحنون، الولايات المتحدة، ليكمل ما نذر نفسه لتحقيقه، فاستمر في بث سمومه في معاداة العرب والمسلمين، فتصدى له ادوارد سعيد وقارعه بالحجة والبرهان، مما فضح جهله وسوء مقاصده.

وعلى اي حال فان سعيد المفكر الكبير لم يُخف تفاصيل حياته سواء في فلسطين ام القاهرة ام الولايات المتحدة. وقد فات على اروين او تجاهل ـ ان سعيد قد خصص كتاب (سيرته الذاتية) المنشور باللغة الانكليزية لرواية تفاصيل حياته بكل صراحة، صغيرها وكبيرها وهو بعنوان: Edward W. Said - Out of Place الذي نشر في لندن سنة 1999 . وقد خصص شطرا منه لقصة حياته في القاهرة، حيث كان لوالده فيها مؤسسة تجارية اصلها في القدس وفرعها في القاهرة، ثم تحولت الى شركة تسمى شركة (ستاندرد) للقرطاسية (ص 11 من الكتاب) وهي تتعاطى استيراد المواد المكتبية كالقرطاسية وآلات النسخ والاقلام وأثاث المكاتب المستوردة، بصفته وكيلا لعدد من الشركات الاميركية، لمنطقة الشرق الاوسط ومنها شركة «ستاندرد للآلات الكاتبة» شأنه شأن كثير من ابناء فلسطين وغيرهم من الناس، ممن تضيق بهم سبل العيش في اوطانهم الاصلية، فيطلبون الرزق في شتى اقطار العالم. هذا وقد تضمن الكتاب بكل وضوح، ولادة ادوارد في القدس سنة 1935، وانه غادرها سنة 1947، وترك وراءه اقارب كثيرين في الناصرة والقدس وصفد والذين استمروا يعيشون في تلك المدن حتى بعد الاحتلال الصيوني (ص 14 ـ 15 من مقدمة الكتاب). وهنا ألا يحق لنا التساؤل عما اذا كانت مغادرته لفلسطين تحدٍّ من حق الانتماء اليها!؟ خاصة وقد انتمى اليها كل من هب ودب من الشعوب بحجج تافهة، وبزعم ان اجدادهم (المزعومين ايضا) قد سكنوا فلسطين قبل الفي عام!!

والآن يهمني جدا ان أؤكد للقارئ بأنني لا اريد ان اظلم جميع المستشرقين، وانكر عليهم بعض الخدمات التي قدمها فريق منهم لتراثنا العربي والاسلامي، حتى انني عندما توليت تدريس (تاريخ الاستشراق) لطلبة قسم التاريخ في كلية الاداب بجامعة الملك سعود لمدة طويلة، حرصت على تحري الجوانب الايجابية في الاستشراق البريطاني، ونشرتها في مقال طويلة في مجلة تلك الكلية رغم عدم ارتياح هيئة تحريرها. وتأكيداً لما ذكرت اغتنم هذه الفرصة لكي اذكر بعض المستشرقين الذين قدموا خدمات لا يمكن نكرانها، سواء اكانوا من الاصدقاء ام الخصوم، وابدأهم بذكر (مر ماديك بكثول) الذي تولى ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية، ترجمة لم يجد احد اي مأخذ عليها، ولذلك بادرت دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد (الهند) بنشرها سنة 1935. وبكثول هذا ـ رغم كونه ابنا لقس بروتستانتي ـ فانه اعتنق الاسلام سنة 1917 وسمى نفسه (محمد)، وانضم الى الدائرة العثمانية آنفة الذكر، وتولى تحرير مجلتها المسماة (الثقافة الاسلامية) حتى وفاته سنة 1936 (انظر دائرة المعارف الاسلامية باللغة الانكليزية ـ طبعة لايدن).

ومن هؤلاء المستشرقين آرثر جون آربري المتوفى سنة 1969 الذي تولى رئاسة قسم الدراسات القديمة في جامعة القاهرة، كما تولى رئاسة قسم الدراسات العربية والاسلامية في جامعة كمبردج. وقد قام بترجمة معاني القرآن الكريم هو الآخر، وترجمته ـ على قدر علمي ـ لا غبار عليها، حسبما اكد لي احد متخرجي الأزهر الحاصل على دكتوراه من جامعة كمبردج البريطانية. ومن أهم منجزاته تأسيس معهد الشرق الاوسط في جامعته، وجمعه للمخطوطات العربية في مكتبة شيستر بيتي في دبلن (أيرلندا) وفهرستها في ثمانية مجلدات (ترجم له الزركلي في الاعلام). وقد دأب على مساعدة الطلبة العرب والمسلمين في دخول الجامعة، وحثهم على احياء التراث الاسلامي بتحقيق مخطوطاته لحمايتها من الضياع وتقديمها الى العالم كدليل على انجازات المسلمين.

وهناك ميخائيل يوحنا دي غويه الهولندي المتوفى سنة 1909، الذي حقق نفائس الكتب العربية ونشرها، ومنها تاريخ الطبري (في 18 مجلدا) وكتب الجغرافيا العربية (في 7 مجلدات) وكتاب (فتوح البلدان) للبلاذري (انظر اعلام الزركلي). وهناك مستشرق هولندي آخر هو (ارند جان فنسنك) المتوفى سنة 1934، استاذ اللغة العربية في جامعة لايدن الذي اهتم بالحديث النبوي الشريف، فانكب على فهرسة الالفاظ الواردة في 14 مجموعة من مجموعات (الصحاح) وقام بترتيبها ابجديا في معجم ضخم يسر للدارسين امر العثور على الاحاديث التي تهمهم. وهذه خدمة لا تقدر بثمن. (ترجم له الزركلي ايضا).

وبين المستشرقين البريطانيين المستشرق ادوارد لين المتوفى سنة 1876 الذي قضى في مصر 14 عاماً من أجل تصنيف معجم للغة العربية ومعانيها باللغة الانكليزية، وقع في عدد كبير من المجلدات، ويعتبره (آربري) آنف الذكر، «اكبر خدمة قدمها اوروبي للغة العربية» (انظر ترجمة حياته في اعلام الزركلي). ومن المستشرقين اصحاب الفضل، الالماني كارل بروكلمان المتوفى سنة 1948 الذي صنف معجماً سماه (تاريخ آداب اللغة العربية)، جمع فيه العلوم التي عرفها العرب وصنفوا فيها، وذكر تلك المصنفات واماكن وجود مخطوطاتها، وما نشر منها. طبع لأول مرة سنة 1898، وكان يراجعه بين حين وآخر فيضيف اليه. وقد ترجم هذا الكتاب الاستاذ عبد الحليم النجار ونشرته الجامعة العربية (انظر مقدمة طبعة هذا الكتاب). ثم لا يفوتني ذكر مستشرق روسي خدم علم الجغرافية عند العرب هو (اغناطوس كراتشكوفسكي) المتوفى سنة 1951، الذي تتبع المؤلفات الجغرافية العربية ايام الازدهار، وجمعها في كتاب سماه (تاريخ الأدب الغرافي العربي)، وقد ترجم الكتاب الى العربية في جزأين كبيرين. هؤلاء مجموعة من المستشرقين الذين قدموا خدمات قيمة، من واجبنا الاعتراف بها، وتسجيل امتناننا لاصحابها. وارجو ان لا يظن القارئ بأن هؤلاء وحدهم فقط ممن خدم تراثنا، وانما هؤلاء هم الذين علقت اسماؤهم في ذاكرتي المتعبة. ولكن قفز الى ذهني اسم المستشرق الامريكي فان دايك الذي كان اساتذا في جامعة بيروت الامريكية في اوائل القرن العشرين لكنه استقال احتجاجاً على قرار الجامعة باتخاذ اللغة الانكليزية لغة للتدريس، اذ كان يرى بان الخدمة الصحيحة للعرب هي في تدريسهم بلغتهم القومية.

* دبلوماسي عراقي سابق